بمحكمات في القرآن، فقد يصبح القرآن محكماً كله - كما عند أهله الذين يعيشونه معرفياً عِلْمياً وعَمَلياً حياتهم - يصبح محكماً في حقل التفسير - ككلّ - مهما بقي مُتشابهاً في ساحة التأويل، ولكن الحروف المقطعة لا تفسير لها ولا تأويل إلّا لأهله الخصوص وهم الرسول ﷺ وذووه المعصومون عليهم السلام فالمتدبِّرون في القرآن حقَّه، الراجعون في تفسير متشابهاته إلى محكماته سليماً ناصعاً، وفوقهم الرافعون ستار التشابه بالقمة العقلية والعلمية والإيمانية، هم لا متشابه لهم في آي القرآن في ساحة التفسير، مهما تعاضل عليهم أمر التأويل، فإن أهله الخصوص أيضاً لا تحليق لهم في تأويله كلِّه، فضلاً عمن دونهم!.

٦ - وكيف تكون المحكمات أُمَّ الكتاب دون أمهات الكتاب؟.

حيث الأُم هُنا هي الأصل الذي يرجع إليه ويُعتمد عليه في حاجيات الطفولة، فالمتشابهات بحاجة إليها في تبيين معضلاتها وإزاحة التشابهات عنها وليست كلّ واحدة من المحكمات بانفرادها أُمًّا لكلِّ المتشابهات، بل هي بأجمعها أمٌّ لها بأجمعها، جَمْعاً أمام جَمْع، فهي - إذاً - أُمٌّ واحدة للمتشابهات مهما كانت كلّ من المحكمات أمًّا لما تناسبها من متشابهات تقدح بها فيظهر مكنونها وتستثير دفينها، كما وهي أُمٌّ لمحكمات من أضرابها حيث الكتاب تعمّه كلّه ما يحتاج المستفسر في تبيانه إلى بيان يفسر.

وهكذا تكون الفاتحة أُمَّ الكتاب ككل، لأنها إجمالة بجملتها عن تفصيل الكتاب، مهما كانت كلّ من سبعها المثاني أُمًّا لفصيل من التفصيل.

كما وإن ﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ دون آيتين، لأن آية كلٍّ لزام آية الأخرى خارقة في الولادة، فابن مريم آية ولادةً عنها دون والد، ومريم آية توليداً له دون والد، فهما - إذاً - آية واحدة وهكذا: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً...﴾ تتلاقى منهما في فاقد الصلب المتعوّد في الولادة، وهما فيه مشتركان.

٧ - اتباع المتشابه - المذموم الضائق - هو اتباعه على تشابهه دون إرجاع صالح إلى محكمة تحميلاً، وإنما لمتهوسات الآراء على المتشابه دون رجوع إلى ركن وثيق، ولا لجوءٍ إلى برهان رفيق دقيق، فإن اتباعه على تشابه دون تفسير صالح ولا طالح غير ممكن، وإنما يتبع المعنى الثابت صالحاً وغير صالح، وهذا هو الذي يثير الفتنة عِلْمياً وعَمَلياً وعقيدياً، وأما اتباع المشابه بعد إرجاعه إلى محكمه فليس اتباعاً للمتشابه حتى يحظر عليه، ثم وفي اتباع المتشابه هكذا واقعٌ رائغ زائف في بُعدْين اثنين هما:

١ - ابتغاء الفتنة و٢ - ابتغاء تأويله، هما ظاهرتان من زيغ القلب وتقلُّبهِ عن ناصع الحق وناصحه إلى ناعق الباطل وفاضحه، وفي ثالوث: الزيغ وابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل، يبرز في المسرح كلّ إدغال وتدجيل، استدلالاً بالكتاب ضدّه لصالح الأهواء والأباطيل.

ففي اتباع المتشابه على تشابهه فتنة في كلّ الحقول، وفي ابتغاء تأويله إلى ما تهواه الأنفس فتنة على فتنة، فإن ذلك التأويل عليل حيث الأصل الذي يتبناه - وهو اتباع المتشابه - عليل، فلا يروّي الغليل ولا يبصر الكليل، رغم أن القرآن شفاءٌ لما في الصدور ورحمة لذات الصدور: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1] ومنهم - كأنحسهم - هم الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

ذلك هو الاتّباع المرفوض لما تشابه منه، دون تفسيره بمحكمه أم أياً كان من صالح التفسير استنطاقاً لآليات بنظائرها، ودخولاً في حقولها وحظائرها من أبوابها دون ظهورها.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

أجل و«من ردَّ متشابه القرآن إلى محكمه هُدي إلى صراط مستقيم. . . وإن في أخبارنا مُتشابهاً كمُتشابه القرآن فردوا مُتشابهها إلى محكمها ولا تتبعوا مُتشابهها دون محكمها فتضلوا»[١]، ودون أن يؤمن بها على تشابهها لمن لا يستطيع على رجعها إلى محكمها.

و﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ قد يعمّ المتشابه في نفسه، إلى ما جعل متشابهاً رغم إحكامه، ثم تحميل ما يتحمل عليه، وهو من أنحس الاتباع لما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. وليس ضربُ القرآن بعضه ببعض - المندَّد به في المأثور - إلّا ضرب التضارب، دون ذلك التفسير التقارب، فكلّ تفسير ينتج تضارباً بين الآيات هو من ضرب القرآن بعضه ببعض ضرب الدّقِل، وكل ما ينتج تقارباً بينها دون تحميل عليها إلّا ما تتحمله، فهو من صالح التفسير، وهو تفسير القرآن بعضه ببعض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٢] فهنا تفسير لفظي للقرآن متشابهاً وغير متشابه، ثم تفسير باطني لهما، ومن ثم تأويل، ولا بدَّ لكلٍّ من دليل، فمفسر المتشابه لفظياً دون دليل، ثم تأويلياً دون دليل، أنه جامع زيغاً على زيغ وفتنة على فتنة، حيث التأويل كلّه في نفسه متشابه لأنه غير مسنودٍ إلى لفظ متشابه أو محكم، بل هو الأوّل معنوياً إلى مبدإٍ أو نتيجة، فهو مخصوص بمن يحيط علماً بمبادئ القُرآن ونتائجه.

فكل اتِّباع للمتشابه - على تشابُهه - هو من زيغ القلب، ثم اتِّباع الحُكم ذاتياً أم بعد الرجوع إلى المحكم هو من استقامة القلب، شرط عدم تحميل الآراء الجارفة عليها على إحكامها.

---

(١) عيون الأخبار حدثني أبي قال حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن أبي حيون مولى الرضا عليه السلام عنه عليه السلام قال: . .

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

فقد يُجعل المحكم مُتشابهاً ثم يُحمل عليه رأي مزيف، وذلك من اتباع المتشابه رغم إحكامه، أو يُجعل المتشابه متّبعاً على تشابهه بنفس التحميل، فكذلك الأمر.

وأما أن يُتبع المحكم على إحكامه، أو يتبع المتشابه بعد قلبه محكماً - اتباعاً في مثلث العلم والعقيدة والعمل أم يتبع المتشابه إيماناً دون تفسير: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فذلك هو الرسوخ في العلم على درجاته.

إن تأويل المتشابه - إيضاحاً لمعناه - يختص بالله، حيث المحكمات تفسر المتشابهات، كما أن تأويل القرآن - ككل - مختص بالله فإنه الذي يعلم مِن التأويل مَن هو أهله كالراسخين في العلم بمختلف درجاتهم.

وعلى أية حال فكلّ تأويل - لأنه خارج عن مدلول اللفظ وراجع إلى غامض المعنى - إنه يحتاج إلى دليل من صاحب المعنى، قد يبينه في سائر كلامه كالمحكمات بالنسبة للمتشابهات، فهو عام لأهل القرآن الخصوص ككل.

أم يبيّنه بإلهام أو وحي وهما يختصان بأصحابهما الخصوص، أم لا يُبينه إلّا يوم القيامة، أم ليس ليُبينه إطلاقاً وهو التأويل المخصوص بعلم الله تعالى شأنه.

ففي مربع التأويل نجده واقعاً غيبياً مُرتبطاً بالمعنى المفهوم من القرآن، لا يعلمه إلّا الله، أم والراسخون في العلم بتعليم الله.

وبالنظر الدقيق إلى آيات التأويل نعرف مدى صدق هذا البيان، فلا تجد فيها ولا أية إشارة إلى تأويل الألفاظ كما يهرفون بما لا يعرفون، بل هو مُثلث التأويل في النشآت الثلاث الأولى والبرزخ والوسطى، تأويلاً عِلْمياً أو واقعياً.

فتأويل كلّ ما فعله خضر لم يكن تأويلاً لكلام إذ لم يكن منه فيما

اختلفا إلّا العمل، إرجاعاً له إلى مأخذ أو نتيجة لا يظهران في مظهر الأعمال.

وتأويل الرؤيا ليوسف هو إرجاعها إلى واقعات لا تظهر من هذه الرؤيا إلّا لمن علّم علم التأويل.

وتأويل القرآن، بروزاً له في حقوله يوم القيامة ليس إلّا للحاضر يوم القيامة ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[1] - ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ...﴾[2].

إذاً فعلم التأويل ككلّ هو من علم الغيب المخصوص تعليمه بالله، وليس ليُعلم من نص الدلالة اللفظية أو ظاهرها، وإنما يتبنى المعنى تدليلاً من الله وهو يهدي السبيل.

والتأويل - في قول فصل - من الأوّل، فهو الإرجاع، إرجاع معنى الآية إلى واقع مجهول أياً كان، تخطياً عن المعلوم، وليس تفسير النص أو الظاهر إلى خلافهما تأويلاً إلّا في اصطلاح مُستحدث لا أصل له لغوياً ولا قرآنياً.

وللتأويل مآلات ثلاثة لا يعول - فيما يؤول إليها - إلّا بدليل قاطع، فإنه من أوصاف المعنى - الخفية - دون اللفظ، فلا يرجع اللفظ إلّا إلى معناه المنصوص أو الظاهر، ثم ليس لتأويل المعنى إلى واحدة من الثلاثة أي دليل من اللفظ أو المعنى.

إذاً فكلّ متشابه له تأويلان اثنان، تأويل للمعنى إلى واقع المراد، وتأويلُ له إلى واحدة من الثلاثة، فالأول ميسور لأهله إرجاعاً للمتشابه إلى

(١) سورة يونس، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٣.

محكمه أم تدبراً في نفس المتشابه ليزول عنه تشابهه، والثاني غير ميسور إلّا لمن علمه الله.

وللمحكم تأويل واحد هو الثاني، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ راجعٌ إلى الثاني لكل محكم أو متشابه.

ومن أقرب التأويلات لمحكمات أو متشابهات هو واقع الأثر لمثلث العلم والعقيدة والعمل بالقرآن في حياة التكليف وقد كشفت عنه النقاب آيات انعكاس الأعمال علمياً وللمتقين عينياً.

ثم التأويل المأخذ ربانياً، والمآل في الأُخرى ربانياً، هما مجهولان إلّا لمن عرفه الله وعلّمه.

فمّما يعلِّمه الله صالحَ عباده المرسلين تأويلُ الأحكام، قدر ما يُقْدرهم على استنباط جزئيات الأحكام من مصادرها الربانية.

ومما لا يعلّمه تأويلُ الحقائق المحكية عنها بالقرآن، قدر ما عند الله، فإنه مخصوص بالله، ولا يخص تأويل القرآن بمتشابهه بل ويعمّ محكمه، مهما كان الأول أعضل.

وزيغ القلب هنا لا يعني زيغه في كلّ الحقول لمكان «زيغ» منكراً، الشاملة لكلّ زيغ، فقد يزيغ علماً دون زيغ في إيمان، أم يزيغ إيماناً وليس له علم حتى يزيغ، أو يزيغ علماً وإيماناً فواويلاه، وثالث هذا الثالوث هو رأس الزاوية في الزيغ الذي يسبب كلَّ فتنة في اتباع المتشابه والتأويل.

٩ - وجه اشتمال الكتاب على متشابهات بجنب المحكمات موجَّه في معنى التشابه والإحكام كما بيّناه، فليس التشابه أمراً قاصداً في قصورٍ دلالي وإجمالٍ متعمَّد حتى ينافي بيان القرآن، بل هو كأصل مما لا بدّ منه في عرض المعارف الإلهية ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً، وفي عرض المنسوخ كما

الناسخ، وهو كهامش على ذلك الأصل طبيعةُ الحال في مختلف الإدراكات والاستعدادات لحدٍّ تصبح آية محكمة عند جماعة متشابهةً عند آخرين، حيث المتشابه - في أوضح تعريف به - ما اشتبه علمه على جاهله، والتشابه في كلّ حقوله هو لزام الكُتب العلمية على الإطلاق، فضلاً عن القرآن الذي يحمل كلّ ما تحتاجه البشرية إلى يوم القيامة - إلّا ما بالإمكان أن يحصل عليه - ففي حقل التشريع الكافل لكافة الحاجات يستحيل عدم التشابه لكافة المكلفين قضية اختلاف الفاعليات والقابليات والاستعدادات في تفهم الكلام.

والمشكلة العويصة إنما هي المتشابهات التي لا تفسير لها حكيماً صالحاً ولا نجد هكذا التشابه في القرآن عن بكرته، فإن لكلٍّ متشابهة من آياته محكماً قد تكون هي نفس المتشابهات بإمعان النظر وإجالة الفِكَر، اللهم إلّا المتشابهات التأويلية التي ليس على أهل القرآن تأويلها، لأنه راجع إلى الراسخين في العلم، أم لا يعلمه إلّا الله حيث يختص علمه بالله.

١٠ - وأما الراسخون في العلم وموقفهم من علم التأويل إيجابياً وسلبياً، فلأن الرسوخ في شيء هو التمكن فيه بلا تزعزع وتزلزلٍ تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوَّانة، فالراسخون في العلم - إذاً - هم المتمكنون فيه الذين لا يختلفون في علمهم ولا يتخلفون.

والعلم يعمّ علم المعرفة وعلم العقيدة وعلم الإيمان والأخير أثبت مهما كان الأولان من أثافيّه وأسّه وأساسه، فقد يثبت الراسخ في علم المعرفة والعقيدة ولا ثبوت له في علم الإيمان والثابت في علم الإيمان ثابت - لا محالة - في علم المعرفة العقيدة على أية حال.

ومن الأوّلين - وهم الأدنون في صنفي الراسخين - علماء أهل الكتاب دون المعصومين: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[١] فإنهم من الذين هادوا، هوداً ورجوعاً إلى الإيمان بالله علماً وعملاً صالحاً بعد سؤال الرؤية جهلاً وعملاً طالحاً، وساحة العصمة القدسية براء من الجهل والجهالة على أية حال، فهم من دون المعصومين عليهم السلام.

والراسخون في العلم في آية التقسيم قد يشمل الأوَّلين على هامش الآخرين، فرسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومون عليهم السلام هم أفضل الآخرين، كما أن الأولياء دون المعصومين هم أفضل الأولين، فليس ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ هنا ليختص بالآخرين فضلاً عن أفضلهم[٢].

والتفسير بهم ليس إلّا من جري التأويل لأصدق مصاديقهم في العلم والايمان، و﴿ٱلْعِلْمِ﴾ هنا بمناسبة المورد هو العلم بالقرآن، وهو بصورة طليقة لائقة طليقُ العلم به في مثلّثه: معرفة وعقيدة وإيماناً قلبياً، وكلٌّ منها قد تكفي للخروج عن «زيغ» الذي يدفع إلى اتّباع المتشابه، مهما كان الزيغ في العلم قد يدفع إلى اتباع المتشابه كزيغ العقيدة والإيمان، فلا بدّ إذاً من رسوخ في الإيمان كأصل، ومن ثمَّ رسوخ في العقيدة التي هي لزام الإيمان، ورسوخ في علم المعرفة.

وأفضل الراسخين في العلم هو أفضلهم في هذه الثلاث، ثم الراسخ في علم الإيمان - على مراتبه - ومن ثمَّ الراسخ في المعرفة - على مراتبها[٣].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

(٢) الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أنس وأبي أمامة ووائلة بن الأسقع وأبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وآله سُئل عن الراسخين في العلم فقال: «من برّت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن عفَّ بطنه وفَرْجَه فذلك من الراسخين في العلم».

(٣) نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام، وفي النبوي صلى الله عليه وآله أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابه لا يعلمه =

ومما يُشْعرنا أنّ أصل العلم هنا هو الإيمان ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[١] حيث الخشية هي من مخلّفات الإيمان قدره، فقد يكون عالماً عقلياً ومعرفياً وليس له ذلك العلم الإيمان الذي يخشى به الله، فهو - إذاً - العلم الخاشي.

ثم الواو في ﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ كما تتحمّل العطف، إنهم يعلمون تأويله كما الله مهما اختلفت الدرجات، كذلك الاستئناف، أنهم لا يعلمون تأويله كله، فما علموا منه فهو، وما جهلوا منه اعترفوا بجهلهم والإيمان به كما علموا منه كما في العلوي عليه السلام حيث سأله رجل هل تصف لنا ربَّك نزدد لهُ حبّاً ومعرفة فغضب عليه السلام وخطب الناس فقال فيما قال: عليك يا عبد الله بما دلّك عليه القرآن من صفته وتقدمك فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من معرفته فأتمَّ به واستضىء بنور هدايته فإنما هي نعمة وحكمة أوتيتها فخذ ما أوتيت وكُن من الشاكرين وما كلفك الشيطان عليه مما ليس عليك في الكتاب فرضه ولا في سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الهداة أثره فكلّ علمه إلى الله ولا تقدر عظمة الله على قدر عقلك فتكون من الهالكين واعلم يا عبد الله أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن الاقتحام في السُّدد المضروبة دون الغيوب فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فقالوا آمنا به كلّ من عند ربنا فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً وسمّى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه (عن كهنه) منهم رسوخاً[٢].

---

= إلّا الله ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب (الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: . . .).

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) في النهج والاحتجاج في كلام لعلي عليه السلام في ذم القضاء السوء - إلى أن قال -: وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنه لا اختلاف فيه - فذكر الآية ثم قال: - وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تُحصى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تُكشف الظلمات إلّا به.

ففصل القول هنا في الراسخين في العلم أنهم يعلمون من تأويل القرآن ما علمهم الله دون مَن سواهم، ويجهلون ما اختص الله بعلمه من التأويل، ومما يعلمونه تأويل الأحكام تأويلَ المبدأ والختام، فلهم في تأويل مبادئ الأحكام استنباط غير المنصوص في القرآن سناداً إلى تأويل المنصوص، وليس لغير المعصومين ذلك التأويل اللهم إلّا القليل الذي له دليل أو العليل الذي لا يروّي الغليل.

فالمنزلة الوسطى والطريقة المُثلى في موقف الراسخين في العلم من علم التأويل هي ألّا يخرجوا من علم التأويل جملة، ولا يدخلوا فيه جملة، بل هم عوان بينهما، يعلمون منه ما علمهم الله من واجب المعرفة الواجبة لأئمة الأمة، ولا يعلمون ما اختص الله بعلمه.

والمستفيضة في حصر الراسخين في العلم في المعصومين تعني أفضلهم وأعلاهم، كالتي تحلق لهم علم التأويل حيث تعني غير ما اختص الله بعلمه منه[1].

إذاً فحصر الوقف عند اسم الله تعالى باستئناف ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ إخراج لهم عن أن يعلموا شيئاً من التأويل من جليلٍ أو قليلٍ، اطلاعاً لطلعه واستنباطاً لغامضه ووامضه واستخراجاً لكوامنه، حطاً لهم بذلك عن رتبة استحقوا الإيفاء عليها واطلاع شُرُفها، فإن الله تعالى قد أعطاهم من نهج السبيل وضياء الدليل ما يفتحون به المُبْهَم ويصدعون به الظلم، امتيازاً لهم كقادة عن سائر الأمة مقودين، وعلمهم بقسم من ذلك التأويل مُسْتَمَدٌّ من علم الله، فلا معنى للوقوف بهم دون منزلتهم، والإحجام عن إيصالهم إلى أقصى هذه المنزلة السامية.

(١) في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام: أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم وأدخلنا وأخرجهم.